مِشْكَاةُ الأَنْوَارِ

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

بفروعها الثلاثة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للأنباء والنشر والتوزيع والطباعة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي

أبو حامد الغزالي

مشكاة الأنوار

حققها وقدم لها

الدكتور أبو العلا عفيفي

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الناشر
الدار القومية للطباعة والنشر
القاهرة
١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) تصدير عام

١ ــ نحن في أمسّ الحاجة إلى نشر علمى دقيق لأصول تراثنا العربى القديم ، فإنه عن طريق هذا النوع من النشر تحيا النصوص وتستبين ، ويسهل على المشتغلين بموضاعاتها قراءتها والإفادة منها . وليس أجدى على الباحث من أن تكون بين يديه الوثائق الأولى مضبوطة محققة خالية من شوائب التحريف والتصحيف.

وقد ابتليت كتبنا القديمة بأن قام على نشر الكثير منها والإشراف على إخراجها ناشرون من غير العلماء المتخصصين ، لاهمّ لهم سوى جنى الربح المادى من طبعها . ونحن نعانى من نشراتهم مانعانى من أخطاء مطبعية ولغوية ، ونقص في النصوص هنا وزيادة هناك ، وخلو تام من التحقيق والتعليق والتفسير والفهارس العلمية بشتّى أنواعها . وكثيراً ما نقف من نص من النصوص حيارى مكتوفي الأيدى لا نفهم له معنى ولا نستطيع له توجيهاً ، أو نوجهه توجيهاً خاطئاً لم يخطر للمؤلف ببال ، لالسبب سوى أن في النص تحريفاً أو نقصاً أو إضافة من ناسخ ، أو خلطاً بين متن النص وشرح وضع عليه . ويكفى أن يسقط حرف النفى «لا» من جملة من الجمل ، أو توضع كلمة « إذ » بدلا من « إذا » أو العكس ، أو تكتب كلمة « العارفين » بدلا من « العراقيين » أو نحو ذلك من التحريفات ، لكى يضطرب النص ويفسد معناه ؛ وكثيراً ما يؤدى بالباحث إلى فهم خاطئ قد يفضى إلى رأى باطل أو نظرية لا أساس لها .

ولايختلف حظ رسالة « مشكاة الأنوار » التى ننشرها اليوم كثيراً عن حظ غيرها من الكتب التى نشرت على النحو غير العلمى الذى أشرنا إليه . فقد طبعت في مصر عدة طبعات : سنة ١٣٢٢هـ ، ١٣٢٥هـ ، ١٩٢٩ م ،

١٣٥٢هـ وضمن مجموعة «الجواهر الغوالى من رسائل حجة الإسلام الغزالى» سنة ١٣٤٣ هـ .

وقد قابلتُ هذه الطبعة — التى هى الآن أكثر الطبعات تداولا — على المخطوطات التى تيسر لى الاطلاع عليها ، فوجدتها حافلة بالأخطاء والتحريفات الخطيرة ؛ كما وجدت فيها إضافات كثيرة على النص الأصلى ، ونقصاً يبلغ الصفحة في موضع من المواضع : وذلك من قوله « بمنزلة البهائم بل أخس » إلى قوله : « بمحض الظلمة وهى نفوسهم المظلمة[1] » .

ويظهر أن الأصل الذى أخذت عنه هذه النسخة كان مختلطاً ببعض الشروح والتعليقات ، فنقل الناسخ كل ذلك ولم يفرق بين المتن وغيره .

ويكنى أن أذكر بعض نماذج من التحريفات التى وقعت في هذه النسخة ليظهر ما فيها من خطورة :

١ — ورد في ص ١٢٩ «سر الكلبية» بالسين : والصحيح « شر الكلبية » بالشين .

٢ — ورد في ص ١٣٠ « وقس عليه الضوء والنهار » : والصحيح «وقس عليه الطُّوروالنار» لأن الكلام عن موسى الذى آنس من جانب الطور ناراً .

٣ — ورد في ص ١٣١ : « وهذا الحظ من الوحى » ، والصحيح : « وهذا النمط من الوحى » .

٤ — ورد في ص ١٤٣ : « وهو الذى يكتب ما أوردته الحواس » . والصحيح : « وهو الذى يستثبت ما أوردته الحواس » .

٥ — ورد في ص ١٣٤ : « أجلى وأسنى » ، والصحيح : « أجل وأسنى » .

(١) انظر ص ١٣٩ من النسخة المطبوعة ضمن مجموعة « الجواهر الغوالى » التى نشرها محيي الدين صبرى الكردى .

٦ – وفي ص ١٣٤ : « فلنرجع إلى غرض الأمثلة » ، والصحيح : « إلى عرض الأمثلة » بالعين المهملة .

٧ – وفي ص ١٣٥ : « كون الأنبياء سراجاً منيراً » ، والصحيح : « سُرُجاً منيرة » .

٨ – وفي ص ١٣٧ : « والحوادث الرديئة » ، والصحيح : « والأشغال المُردِية » .

٩ – وفي ص ١٣٨ : « وأصناف هذه الأقسام كثيرة » ، والصحيح : « وأقسام هذه الأصناف كثيرة » .

١٠ – وفي ص ١٣٩ : « فأحاله الطبع » : والصحيح : « فأحاله إلى الطبع » .

هذا قليل من كثير من أمثلة الأخطاء التى لاحظتها في هذه الطبعة بالإضافة إلى العيوب الأخرى التى أشرت إليها ؛ ولذلك كانت إعادة نشر هذه الرسالة ونشر غيرها من مؤلفات الغزالى واجباً تقتضيه الأمانة العلمية كما يقتضيه إنصاف المؤلف الذى من حقه علينا أن نفهم مؤلفاته على النحو الصحيح الذى قصد إليه . وهذا ما اعتزم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القيام به عند ما قرر نشر مؤلفات الغزالى ما طبع منها وما لايزال مخطوطاً .

٢ – اسم الرسالة ومنزلتها من مؤلفات الغزالى :

١ – أطلق عليها اسم « مشكاة الأنوار » كما ورد في « كشف الظنون » لحاجى خليفة وفي النسخ المطبوعة .

٢ – وأطلق عليها كذلك اسم « مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار » كما ورد في مخطوطة باريس وفي آخر مخطوطة بلدية الإسكندرية .

٣ – وسميت باسم « كتاب المشكاة والمصباح » كما هو وارد في مخطوطة شهيد على باشا .

وينسب للغزالى كتاب آخر بعنوان « مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار »

لاصلة له بهذه الرسالة ؛ وإنما هو كتاب ضخم توجد منه مخطوطات بدار الكتب المصرية ؛ وفي صفحة عنوان المخطوطة رقم ٢٣٧ تصوف يرد اسم المؤلف الحقيقي وهو علاء الدين على بن محمد الشهير بابن الفقيه الحافظ المصرى المتوفي سنة ٨٧٧[١] .

ولاشك في أن رسالة مشكاة الأنوار من مؤلفات الغزالى المتأخرة التى تمثل عصر النضج الفكرى والروحى ؛ ولكنا لانستطيع أن نضع تاريخا محدوداً لتأليفها كما فعل الأستاذ ماسنيون في كتابه « مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف في الإسلام : باريس سنة ١٩٢٩ » حيث يقول إنها ألفت في الفترة ما بين ٤٩٥ ب ٥٠٥ ، وهى الفترة التى قضاها الغزالى في طوس وعكف فيها على التأليف والعبادة . ويذكر ماسنيون من مؤلفات الغزالى في هذه الفترة كتاب « معيار العلم » وكتاب « محك النظر » وكتاب «المقصد الأسنى » ورسالة «مشكاة الأنوار » . ولكنا نرى في «مشكاة الأنوار » إحالات على هذه الكتب جميعها مما يدل على أن الغزالى ألفها قبل المشكاة ، ولاندرى إذا كان ألفها كلها في نفس الفترة التى يحددها ماسنيون . ولانظن أن للأستاذ ماسنيون من السند التاريخى ما يعتمد عليه في تحديد سنوات تأليف كتب الغزالى على النحو الذى رسمه .

٣ ــ مخطوطات الرسالة :

يوجد للرسالة ما لايقل عن ست وثلاثين مخطوطة مبعثرة في جميع أنحاء العالم ؛ نذكر منها ما يلى :

(١) بلدية الإسكندرية وتاريخها ٩٠٧ هـ (٢) قوله حـ ١ ص ٢٦٢ . (٣) الموصل ١٧٦ [٨] (٤) بتنا ٢ : ٤١٢ [برقم ٢٥٨٠ (٨)] (٥) برلين رقم ٣٢٠٧ (٦) ليدن رقم ١٩٨٨ . (٧) مخطوطات بريل ٢ : ١٠٥٣ (٨) الأمبروزيانا A 64,V (RSO III,573)

(١) راجع مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى : ص ٣٨١ — ٣٨٢ : القاهرة سنة ١٩٦١ .

(٩) الفاتيكان بورجيرى ٦٥ Vat. Borgh. (١٠) مانشستر 71,i (١١) برنستون ، مجموعة جارت رقم ١٨٩٢ وتاريخه ٩٣٧ هـ (١٢) المكتب الهندى بلندن رقم ١٢٣٧ فهرس آربرى بتاريخ ١٠٩٦ ؛ ورقم ١٢٣٨ بتاريخ ١١٠٧ . (١٣) طهران : مجلس شورای ملى رقم ٩٠١٥ بتاريخ ١٣٢٠ . (١٤) آصفية ١ : ٣٨٨ [١٤ (٥) تصوف عربى] (١٥) طهران ٢ : ٧٧ . (١٦) رامفور ١ : ٦٩٧ . (١٧) الظاهرية : عام ٧٦٢١ .

وفي استانبول : (١٨) شهيد على ١٧١٢ ، ١٣٧٧ . (١٩) بشير أغا ٦٥٠ (٢٠) السليمانية ٧٣٤ . (٢١) كوبرلى برقمى ٨٦٠ ، ١٦٠٣ : (٢٢) أياصوفيا ٢٠٧٥ ، ١٧١١ [٣] ، ٤٨٠١ . (٢٣) جار الله ١٠٩٢ [١] ، ٢٠٧٥ . (٢٤) ولى الدين ١٨٢٩ . (٢٥) سليم أغا : المجموع رقم ١٠٨ . (٢٦) أسعد ١٧١٧ر١٨ . وفي دار الكتب المصرية ، (٢٧) ٢٦٧٣ تصوف : بتاريخ ١٠٦٥ ، (٢٨) برقم ١٨٤ تصوف (ضمن مجموعة) ، (٢٩) مجاميع طلعت بأرقام ٢٧٤ ، ٥١٣ ، ٣٢٦ ، ٨٢٢ ، ٨٢٦ .

وفي باريس (٣٠) برقم ١٣٣١ . (٣١) وفي الأسكوريال ٢ برقم ٦٣١ . (٣٢) جوتا (فهرس پرتش ق ٣ حـ ٢ ص ٣٧٨) برقم ١١٦٦ بتاريخ ١١٨٨ .[1]

٤ ــ مخطوطتا شهيد على وبلدية الإسكندرية اللتان اتخذتا أساساً لهذه النشرة :

(ا) مخطوطة شهيد على[2] . رقم ١٧١٢ بمكتبة شهيد على باستانبول ، وتوجد منها صورة شمسية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٦٦٢ تصوف . تقع في ٢٢ ورقة في ٤٣ صفحة مسطرتها ٢٣ سطراً بخط كبير واضح . وفي صفحة العنوان :

(١) أخذ هذا الثبت برمته من كتاب مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى : ص ١٩٤ .

(٢) وقد أشرنا إليها بالحرف ش .

« كتاب المشكاة والمصباح صنفه الشيخ الإمام الزاهد حجة الإسلام أبو حامد[1] محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه » .

وتحت ذلك اسم الناسخ وهو « عبد المجيد بن الفضل الفزارى الطبرى ».

وأول الرسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم . رب أنعمت فزد بفضلك . الحمد لله فائض الأنوار الخ .

وأكبر ميزة لهذه المخطوطة أنها — فيما نعلم — أقدم مخطوطة موجودة للرسالة ؛ إذ أنها كتبت سنة ٥٠٩هـ أى بعد وفاة الغزالى بأربع سنوات . يقول ناسخها في آخرها :

« نجز الكتاب وصادف فراغ صاحبه عبد المجيد بن الفضل الفزارى الطبرى ليلة الجمعة وهى الليلة التاسعة من شهر رمضان سنة تسع وخمسمائة . وهو يحمد الله تعالى كثيراً على نعمته ، ويصلى على محمد النبي وزمرته » .

وعلى الرغم من هذه الميزة التى تجعل مخطوطة شهيد على أقرب النسخ من نسخة المؤلف الأصلية ، لاحظنا فيها — لسوء الحظ — كثيراً من الأخطاء والتحريفات والأغلاط النحوية حتى في اسم الغزالى ، مما يدل على أن الناسخ لم يكن على حظ كبير من الثقافة اللغوية :

(ب) مخطوطة بلدية الإسكندرية[2] : رقم ١٧٨٢ — د بقلم فارسى دقيق جميل ؛ نسخت سنة ٩٠٧هـ وهى تقع في ١٧ ورقة من ٣٤ صفحة ، ومسطرتها ١٩ سطراً .

وهى على الجملة أدق من نسخة شهيد على ، وبها كلمات ، وأحيانا جمل قصيرة ، هامة ساقطة من المخطوطة الأخرى . وفي صفحة العنوان « كتاب مشكاة الأنوار للإمام الغزالى رحمه الله تعالى » .

والصفحة مملوءة بأدعية وآيات قرآنية وأحاديث مكتوبة بخط ناسخ الرسالة .

---

(١) في الأصل « أبى حامد ! » ، ولعل صنّفه تحريف لكلمة « صنعة »

(٢) وقد أشرنا إليها بالحرف ب .

وتبدأ المخطوطة بأول الرسالة وهو « الحمد لله فائض الأنوار وفاتح الأبصار وكاشف الأسرار الخ .

وتنتهى بقول الناسخ :

« تمت كتابة مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار . اللهم اغفر لنا مع الأبرار. يسر العسر يا ميسر الأعساروبا خارق الأستار بحرمة محمد سيد شفيع الأشرار وقامع الكفار . تاريخه سبع وتسعمائة من هجرة النبوة » .

وقد اعتمدنا في تحقيق هذه الرسالة على هاتين المخطوطتين ، واعتبرنا مخطوطة شهيد على أصلاً ، وسجلنا القراءات المخالفة الواردة في مخطوطة بلدية الإسكندرية في الهوامش . ولكن هذا لم يمنعنا في كثير من الأحيان أن نأخذ بقراءات مخطوطة بلدية الإسكندرية ونثبتها في المتن ونذكر ما يخالفها من قراءات مخطوطة شهيد على في الهامش ؛ فقد كان رائدنا في تحقيق النص الأخذ بأفضل القراءات .

٥ ــ ترجمات المشكاة والدراسات التى وضعت حولها :

لم تلق رسالة « مشكاة الأنوار » من عناية الباحثين ما لقيه بعض كتب الغزالى الأخرى على الرغم من أهميتها ومنزلتها العالية بين كتب المؤلف التى كتبها في عصر نضجه . والرسالة جديرة بالدراسة والتحليل العميق لما تلقيه من ضوء على بعض المسائل التى عالجها الغزالى في كتب سابقة عليها ، ولأنها تصور الموقف النهائى الذى وقفه من هذه المسائل . وقد جرؤ فيها على ما لم يجرؤ بالتصريح بمثله في أى مؤلف آخر : فقد أشرف فيها على القول بوحدة الوجود ، وخلص بعد مناقشات طويلة إلى القول بأنه ليس في الوجود موجود حقيق إلا الله ؛ لأن كل ماسواه مستمد وجوده منه ؛ وما كان وجوده عارية فهو في حكم المعدوم . فالعالم في حقيقته لاوجود له . وأقصى ما صرح به في كتبه الأخرى قوله « إنه ليس في الوجود إلا الله وآثاره والكون كله من آثاره » .

ولعل السر في عدم إقبال الباحثين على دراسة هذه الرسالة أنها تدور حول موضوع خاص ضيق في مظهره وإن كان واسعاً وعميقاً في حقيقته :

فقد يتوهم الناظر فيها نظرة عابرة أنها ليست إلا تفسيراً لآية قرآنية خاصة هى آية النور ، ولايدرك أن الغزالى قد لخص في هذا التفسير فلسفة إشراقية كاملة، ونظرية في حقيقة الوجود كما يتصوره . ويتجلى في الرسالة إلى جانب هذا المنهجُ الذى التزمه الغزالى في تأويله للقرآن وتخريجه للمعانى الباطنية فيه ، وهو المنهج الذى لاشك في أن ابن عربى قد حاكاه فيه عندما استخلص مذهبه الفلسفى الصوفي كاملاً من طائفة محدودة من الآيات القرآنية ، وإن كان الغزالى قد قصر منهجه التأويلى في الأغلب على الآيات التى يضرب فيها الله الأمثال للناس في حين أن ابن عربى التزم هذا المنهج في تفسيره للقرآن برمته .

ويستوى في عدم العناية بدراسة المشكاة الباحثون العرب والغربيون . أما الباحثون العرب فقد شغلوا أنفسهم بموقف الغزالى من الفلاسفة ورده عليهم ؛ أو بالرد عليه في نقده للفلاسفة كما فعل ابن رشد في تهافت التهافت ، وكأنه لم يخطر ببالهم أن الغزالى الذى حارب الفلسفة وجاول هدمها فيلسوف من طراز آخر غير طراز الفارابى وابن سينا ؛ وأن المصادر الخصبة في فلسفته هى رسائله القصار كالمشكاة والرسالة اللدنية وبعض أجزاء كتبه المطولة كالإحياء ومقدمة المستصفى .

وأما علماء الغرب فقد جذبتهم في الغزالى شخصيته العالمية فعنوا بدراسة كتبه من حيث صلتها بعلم الأديان المقارن ، وبالغزالى الصوفي لا الغزالى الفيلسوف .

ولا تزيد البحوث المطولة التى وضعها الغربيون حول «مشكاة الأنوار» على ثلاثة :

الأول : مقال كتبه ڤنسنك في ليدن سنة ١٩٤٤ في عشر صفحات .

الثانى : بحث نشره جيردنر بمجلة « الإسلام » Der Islam بالإنجليزية بعنوان « مشكاة الأنوار ومشكلة الغزالى » سنة ١٩١٤ .

الثالث : بحث نشره مونتجومرى وات بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية J R.A.S سنة ١٩٤٥ .

وقد عرضنا لهذه البحوث وناقشناها في تحليلنا للكتاب .

وكذلك لم تحظ المشكاة من الترجمات إلى اللغات الأوربية إلا بثلاث : الأولى ترجمة إلى اللاتينية قام بها إسحق بن يوسف الفاسى ؛ والثانية إلى اللاتينية أيضاً وقد قام بها مترجم مجهول ؛ والثالثة إلى الإنجليزية قام بها جيردنر سنة ١٩٢٤ .

(ب) تحليل نقدى للرسالة

موضوع رسالة « مشكاة الأنوار » كما يقول الغزالى ، هو أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ما تشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المرويّة مثل قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » الخ . مع قوله عليه السلام : « إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة » الخ .

فالغزالى له نظرية فلسفية إشراقية يحاول في ضوئها أن يؤول آية النو وحديث الحجب . أى أنه لا يأخذ الآية والحديث على ظاهرهما وحسب ، بل يبحث عن الأسرار الإلهية التى ينطويان عليها ، جرياً على منهجه الخاص في التأويل ؛ وهو منهج أشار إليه بالتفصيل في هذه الرسالة : وستأتى خلاصة له في هذا التحليل .

ولاجدال في أن الجانب الفلسفى من الرسالة يجب أن يستخلص من التأويلات الباطنية التى وضعها الغزالى على الآية والحديث وما احتويا من رموز وإشارات وما خرّج منهما وفرّع عنهما من تخريجات وتفريعات . وبهذا أتت الرسالة فريدة في بابها من بين مؤلفات الغزالى ، لها وحدتها التأليفية الخاصة التى تمتاز بها ، وإن كنا نرى لبعض أجزائها نظيراً في كتبه السابقة عليها : وذلك مثل كلامه عن حديث الحجب في أواخر الجزء الثالث من كتاب الإحياء .

الفصل الأول

يبدأ الفصل الأول بمناقشة معنى « النور » فى عرف العامة وعرف الخاصة ، ثم فى عرف خاصة الخاصة وذلك تمهيداً لبيان أن الله تعالى هو نور الأنوار أو النور الأعلى الأقصى ، وأنه النور الحق والحقيّ الذى تنبعث منه سائر

الأنوار التى لا تسمى أنواراً إلا على طريق المجاز . فكأن الغزالى بدأ بقضية اعتبرها بديهية أو مسلمة ، وهى أن للعالم أصلاً مغايراً له وأن هذا الأصل هو النور الحقيقى أو النور بالذات ، ثم اتخذ خطوات تدريجية لا لإثبات وجود ذلك النور بل لتقرير وجوده .

والنور بالمعنى العامى هو ما يُبْصَر بنفسه ويبصر به غيره كنور الشمس والقمر والسراج والنار المشتعلة . ولكن لما كان هذا النور لايُبصَر ولا يُدرَك إلا إذا وجدت عَيْن تبصره ، اعتُبِر الروح الباصر ركناً في إدراكه وكان أولى بأن يطلق عليه اسم النور من النور الظاهر.

هذه أول خطوة خطاها الغزالى في الترقي في معنى النور وفي تجريده ، إذ انتقل من النور الظاهر المحسوس إلى نور آخر غير ظاهر وغير محسوس : وهذا النور الآخر هو النور في عرف الخاصة .

ثم نظر الغزالى في « نورالعين » فإذا به موسوم بأنواع كثيرة من النقصان: فهو يبصر غيره ولايبصر نفسه ، وهو لايبصر من الأشياء إلا ظاهرها ؛ ولايبصر الأشياء المفرطة في القرب والبعد ، ولايبصر إلا المتناهى ؛ ويرى الصغير كبيراً والكبير صغيراً ، والساكن متحركاً والمتحرك ساكناً وهكذا .

ولكن في الإنسان « عيناً » ليس فيها شيء من هذه النقائص وهى « العقل » أو الروح أو النفس الإنسانية : لذلك كانت أولى باسم النور من العين الباصرة . هذه هى الخطوة الثانية التى خطاها الغزالى في تجريد النور حيث وصل إلى نور عقلى به يبصر الإنسان نفسه وغيره ، ويدرك المتناهى واللامتناهى ، والأشياء المفرطة في البعد والقرب ، ويدرك ما وراء الحجب ، وينفذ إلى بواطن الأمور وأسرارها وحقائقها ، والعالم أعلاه وأسفله ؛ بل يدرك الخالق جل شأنه ويدرك نسبته إليه .

إلا أن العقل على الرغم من كل هذه الكمالات التى من أجلها استحق اسم النور أكثر مما استحقه نور البصر لايدرك مدركاته على درجة واحدة ؛ فمن الأشياء ما يدركه إدراكاً مباشراً في جلاء ووضوح ، وبعضها مالا يدركه إلا إذا نُبِّه إليه من مصدر حكيم . والقرآن أعظم منبه للعقل لأنه أعظم حكمة.

ومن هنا كان القرآن أولى باسم النور من العقل ، وورد وصفه بالنور في قوله تعالى : « والنور الذى أنزلنا » ، وفي قوله : « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » .

هذه هى الخطوة الثالثة في تجريد النور إذ نحن الآن بإزاء نور ليس من أنوار هذا العالم ، بل من أنوار عالم الملكوت الذى منه القرآن . وعالم الملكوت هو العالم العلوى الذى تسكنه الملائكة وتعرج إليه نفوس السالكين . وهو عالم الغيب الذى يعتبر عالم الشهادة أثراً من آثاره وظلاً له ومسبّباً عنه . وهو عالم مشحون بالأنوار .

ثم إن أنوار عالم الملكوت التى تقتبس منها الأنوار الأرضية مرتّبة بحسب قربها وبعدها من منبع النور الأول الذى يمثله الغزالى بضوء القمر عندما يدخل في كوة بيت فيقع على مرآة منصوبة على حائط ، ثم ينعكس منها على مرآة على حائط آخر ، ثم ينعطف إلى الأرض فينيرها . فهو نور واحد ظهر عنه بواسطة الانعكاسات أنوار كثيرة مستعيرة وجودها منه لأنه لايمكن أن يشتق بعضها من بعض إلى غير نهاية ، بل لابد أن ترتقى إلى منبع النور الأول الذى هو النور بالذات أو النور الحقيقى أو النور المحض (الله) الذى لايسمى غيره باسم النور إلا مجازاً .

هذا النور الحق هو الذى بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولاً وإدامة الإنارة ثانياً ، ولاشركة لنور غيره في حقيقة اسم النور ولا استحقاقه .

ويقابل النور الظلمة . وإذا كان النور هو الوجود المحض ، فالظلمة هى العدم المحض ، لأن المعدوم ليس موجوداً لنفسه ولا لغيره . ولكن الغزالى لايستعمل كلمتى النور والظلمة كما يستعملان في مذهب الثنوية الفارسية بمعنى مبدأين متعارضين متصارعين . وإنما النور عنده هو الوجود الإيجابى والعدم هو سلب الوجود . ولما كان الوجود ينقسم إلى ما له هذه الصفة من ذاته وإلى ما هى له من غيره ؛ ولما كانت نسبة الوجود إلى هذا الأخير إنما هى من حيث إضافته إلى غيره لامن حيث ذاته ، اعتبر في حكم

العدم المحض . وهذا هو شأن العالم أوكل ما يطلق عليه اسم « ما سوى الله » . فهو في ذاته عدم محض ، والوجود الحق هو الله تعالى كما أنه هو النور الحق . وليس هذا الكلام ضرباً من المجاز في التعبير في نظر الغزالى ، بل هو الحق الصريح ؛ كما أنه ليس نتيجة لمقدمات نظرية وضعها العقل ، بل هو حقيقة يشاهدها العارفون مشاهدة عيانية عندما يرقون في معراجهم الروحى« من حضيض المجاز إلى يفاع الحقيقة » فيدركون ذوقاً معنى قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » لابمعنى أن كل شيء سوى الله يصير هالكاً في وقت من الأوقات ، بل بمعنى أن كل شيء سوى الله هالك أزلاً وأبداً ولايتصور إلا كذلك . أما الموجود فهو وجه الحق وحده ؛ والله تعالى هو المتفرد بالملك أزلاً وأبداً ، في هذه الدنيا وفي الآخرة . وليس نداء الله في المخلوقات يوم القيامة بقوله « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار » قاصراً على يوم القيامة ، بل إنه لا يفارق سمع المخلوقات أبداً في هذه الدنيا .

وهكذا وصل الغزالى في نهاية تفكيره إلى نظرية أشبه ما تكون بنظرية وحدة الوجود ؛ ومن العسير صرفها عن هذا المعنى إلا إذا اعتبرت أقواله من قبيل الشطح الصوفي ، ولم يؤثر عن الغزالى أنه كان من أصحاب الشطحات . فهو يقرب قرباً عجيباً من أصحاب وحدة الوجود حينما يقول « إن العالم بأسره مشحون بالأنوار .. ثم ترقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول ؛ وأن ذلك هو الله تعالى وحده لاشريك له ، وأن سائر الأنوار مستعارة ، وإنما الحقيق نوره فقط ، وأن الكل نوره ، بل هو الكل ؛ بل لاهوية لغيره إلا بالمجاز . . بل كما أنه لا إله إلا هو ، فلا هو إلا هو ، لأن « هو » عبارة عما إليه إشارة كيفما كان ، ولاإشارة إلاإليه » . إنه لا يقول صراحة إن الحق هو الخلق وإنهما وجهان لحقيقة واحدة لافرق بينهما إلا بالاعتبار كما قال ابن عربى من بعده ، ولكنه يقول لا موجود على الحقيقة إلا الله ، وإن العالم لاوجود له إلا من حيث انعكاس وجود الحق فيه كانعكاس ضوء القمر على صفحة المرايا المتعددة . وهذه في نظره حقيقة يقرها العقل ويؤيدها الكشف الصوفي . وهو يفرّق في نهاية المطاف بين